التنبؤات في الشعر الملحون الديني الجزائري

د. عبد القادر فيطس
جامعة زيان عاشور بالجلفة
Feitas_Aek@yahoo.fr

ملخص:

يتناول هذا البحث ظاهرة نادرة في الشعر الشعبي الديني الجزائري، تتمثل في الشعر الاستشرافي، الشعر الذي يتنبأ فيه صاحبه بحوادث تقع في المستقبل، أي وقائع يخبر بها على اعتبار ما سيكون وتقع لا محالة. وهذا الغرض الديني يكتنفه الغموض من حيث المعنى، ولكن الشاعر يتخذه أسلوبا كمطية للنقد السياسي والاجتماعي، متخذا لهذه الغاية إشارات ورموز للدلالة على ما يأتي مستقبلا.

Summary

This research talks about a rare phenomenon in the Algerian popular religious poetry represented in djofry poetry in which the poet predict the incidents which happen in the future that is to say, incidents which he relates and considers happen definitely. This religious objective is obscure in its sens, but the poet considers it as a style whose the way is the social and political critics. For this purpose, he uses signals and symbols to indicate what follows.

موقع الجفريات من الشعر الملحون الديني الجزائري.

تنتمي القصائد الجفرية إلى الشعر الديني في موضوعها، وهي من أندر القصائد في الشعر الملحون الجزائري، والشعر الجفري –على قلته– فيه يتنبأ الشاعر بحوادث تقع مستقبلا بالاعتماد على الرموز«يختص الشعر الملحون بنوع يسمى الجفريات، وهو التنبؤ بالحوادث المستقبلة، والواقع أنهم يتخذون هذا الأسلوب كمطية للنقد السياسي، متخذين لهذه الغاية إشارات ورموز يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها»[1]، أي وقائع يخبر بها على اعتبار ما سيكون، وكأنها اختلاس من الغيب، وأمور الغيب لا يعلمها إلا الله باستثناء ما أطلعه الله من عنده للصالحين من عباده، فيضع على ألسنتهم كلاما يقع لا محالة وعلى حد تعبير ابن خلدون «إن البشر محجوبون عن الغيب، إلاّ ما أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية»[2].

وتعتمد قصائد الجفر –أحيانا– على الحروف كرموز للدلالة على توضيح شيء غامض، أو حوادث تأتي في المستقبل، ويرى الباحث عبد الحميد صالح حمدان في تقديمه وتحقيقه لرسالتين في سر الحروف ومعانيها، واحدة لابن عربي والأخرى، "لأبي الحسن الحرالي" بأن الحروف «فرع من علم الجفر وهو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقل بالدلالة ويسمى كذلك بعلم التكسير، ومنه تعرف حوادث العالم إلى انقراضه، وقد أضحى هذا العلم، وعلى يد بعض الفرق الباطنية نوعا من الممارسة السحرية» [3] ويرى بعض العلماء أن الحروف وأسرارها سارية في الأسماء وسارية في الأكوان وتتصل بالروحانيات والفلك والتنجيم، والصوفية يرون أن الحروف لها دلالات خاصة في أسماء الله الحسنى المشعّة بالأسرار والخواص وينال بها كل مطلوب، والحروف عندهم تكمن في الحقائق البسيطة للعلم الإلهي قبل انصباغها بالوجود العيني، ونجد أسرار هذا العلم مبثوثا في كتب المصتوفة كما يقول الحرالي: «وكذلك في سائر الأسماء والمسميات في جميع اللغات يختص كل اسم من الحروف بما يناسب أحوال تلك

الأمة في ذلك المسمى في إدراكها وانتفاعها به» [4]، ويتخذ أسلوب الجفر كمطية للنقد الاجتماعي والسياسي برؤى مستقبلية، صادرة عن هبة غيبية يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين. ومن أشهر الكتب التي ألفت في الجفر كتاب "مفتاح الجفر الكبير" لمحمد بن علي السنوسي[5]، يعتمده المتصوفة بكثرة.

ويبدو أن أصحاب الطرق الصوفية متأثرون بأفكار علم الباطن، حيث يتكلمون عن كتاب الجفر للسنوسي، هذا الكتاب العجيب الذي يعج بالرموز، وكثير الغموض، ويعتبرونه من مصادر علم الباطن ومستودع لأفكاره، وأورد العياشي في رحلته مفهوم ابن عربي للجفر بأنه «من الأسرار التي اختص بها الأنبياء وورثتهم من العارفين الكمل» [6]، والشعر الملحون كان وعاء الشعر الجفري لأن لغته تناسب خطابه، وفي المناطق السهبية والجنوبية يطلق على الجفر اسم النشد.

ومن أشهر القصائد الجفرية التي كانت البذرة الأولى في هذا الغرض أوردها سونك في قصيدة "صلو على النبي وارضو على العشرا" [7]، وقصيدة أوردها الباحث "عبد القادر جلول دواجي" هي "يا ناس اللي ما تقراو اجايه" [8] وهما للشاعر الأخضر بن خلوف[9].

ففي القصيدة الأولى "صلو على النبي وارضو على العشرا" يتنبأ بما يقع ببلاد المغرب وإفريقيا، ابتداء من القرن الثاني عشر الهجري إلى ما بعدها، منها هذه الأبيات:

تفنى ببلاد سبته كثير من الإسلام وهران على أثر قولى ذا الحديث وبوحا
وتشوف الهول والطراد بين الميم واللام حتى تقول ربي وخذ هذه الروحا
أول اثنا عشر القرن بالقرون اعداد يا بن خلوف بعدك تشوف ما يطرا
تبرا وتزول هذه الهموم والانكاد وتعود فرح وسرور ما ترى كشرا

بإذن الله وهران تعود للاسلام بالعلم والعمل والمحاضر والقرآن
بالذكر والزكاة والصلاة والصيام ورجال غايطين في مساجد الآذان
وتعود الرحمه للغريب والأيتام واطعام من تولى وسوقها رنان
ترخس جميع الأسعار من الزرع والاثمار بإذن الله ربي هو أعلم وادرا
طامة تجي من البحر كالنمل غوار تدي قليل من الإسلام مكبل أسرا
وشي إسلام ترتد ثانيا للكفار والناس باقيه في الهلاك والقهرا
ويجوك قوم الأتراك والعرب يا اجناد ويوقع طراد كثير ثما في غمرا
والرجال ضاجه والنسا مع الأولاد والكور يخبط مع الرصاص لا فترا
يا من سمعت قولي أفهم لذو الأوزان لو كان تطول عمرك ترى هموم كثيرا
آخر الزمان ما تروا من الامحان تكثر أهل المعاصي تغيب أهل الخيرا
تولي أهل المعاصي تجوز بالطغيان حولي وقوتي بك صاحب التدابيرا
تخرج على الجزائر عساكر الخزيان بالبومبه والمدافع ومحيرق تزفرا
هذا الكلام ميم وقبن القدر واليا على أتره زيد الدال في الجرا
بعد تمام ذا القول تقحط العباد تبقى نحو شهرين ترجع الكشرا
نوريك حدها من بلاد محمد لطرابلس حتى لتونس الخضرا

في هذه القصيدة يتنبأ الشاعر بزوال المصائب والهموم والأحزان وتسود الأفراح، ويعود الإسلام إلى مدينة وهران، وتكون كعهدها منارة للعلم والنشاط التجاري، إلى أن يأتيها الاستعمار الإسباني، حيث يعيثون في أرضها فسادا ويعذبون سكانها وينهبون خيراتها ثم يقيض الله رجالا يهبون لنصرتها من عرب وأتراك ليحرروها من الإسبان، وبعدها يعود الأمن والاستقرار، وتتوحد القبائل والعروش وتتآخى الناس، وبعدة مدة تسقط في براثن الفساد والمعاصي فيقل الخير ويكثر الشر، فيستغل الإسبان هذه الظروف ليعاودوا الهجوم على وهران

وسواحلها، حاملين معهم عدة وعتادا كبيرين من مدافع وأسلحة وقنابل فتاكة، ويعلن الجهاد مرة أخرى، ويتصدى لهم السلطان محمد في معارك طويلة تدوم شهرين، وأثناء ذلك ينتشر القحط والمجاعة، ثم يعود السلم بانتصار السلطان ويعم الاستقرار للجزائر عامة وتركيا وطرابلس وتونس.

وفي الختام استعمل أربعة حروف هي: الميم، القاف، الياء، الدال ومجموعها "مقيد" فارتباط العدد بهذه الحروف يعني شيئا ما، وهذا يرجع إلى تأثير جدول الأبجدية[10]، حيث يقترن كل حرف بعدد معين، ورقم ثابت لا يخص غيره.

فالميم مقرون برقم 40، والقاف مقرون برقم 100، والياء مقرونة برقم 10، والدال مقرون برقم 4.

وهذه القصيدة غير مؤرخة و لم يورد الشاعر إشارة أو تلميح عن سبب نظمها، إلا أنها تعج بالأحداث والوقائع التي تنبأ بها، وحدثت فعلا حسب المصادر التاريخية التي تؤرخ للاحتلال الإسباني على السواحل الجزائرية.

والقصيدة الثانية "يا ناس اللي ما تقراو اجابه" يتنبأ فيها بما سيحدث في آخر الزمان من كثرة المعاصي والفساد وأحوال الناس في حب الدنيا ونسيان الآخرة، حول الساعة وعلاماتها، فيقول: ﷺويكون قد استقاها من آحاديث الرسول

يا ناس اللي ما تقراو وجايه غارسين الركايز خيمه بلا عمود
ما معاه مروه ولا مسقمه يعود صاحب المال مشرف النسب
والشريف هنا والهيه يرتمى بالعيون يشوفوه والقلوب عاميه
الكذب والخدعه والجور والحسد لا وقر لا حشمه لا عز لا حياء
الغتبه والنهب في الجار بالشهود تاريخ عظيم جبرتو يا أهل الكرام
قريتها شاو والحال على أذن الجدود الهموم يا سره راهي للناس جايه
قرن الثالث عشره وخوه في الوجود عقبت الدنيا جات اليوم للحضر

فتاة بنت الشرفه في الهم والكرود والشرف معها سجره خاويه
والنسا في الأسواق الا يشبروا متعاندين على صرف المال والشباح
يوم ليهم وغدا لهواك ينكروا مالكيين الفحشا بالصوت والصياح
القلوب ملانه بالغش والسدود وسيوفهم في المقبل تعود حافيه
تابعين الربا واليجره والحفان المسنه من دون الجار حافيه
الخديعه في الجوامع وقت السجود يعظموا الأميين تقوى أهل الخمر
أهل الخديعه غيروا الحكمه في البلاد وارثين الكرسي أمره في الشرع
مشمتين الضحك تمثيل للقرود لا حديث يوالم لا قلوب صافيه
الخلوفي راقب تشوف ما يعود خذ تقريب الساعه حق بلا حساب

في هذه القصيدة يتنبأ فيها بما يحدث في آخر الزمان، من آثام ومعاص، وأحوال المسلمين في حب الدنيا والغفلة عن الآخرة، حيث يشبه المسلم الغافل عن أمر دينه كالخيمة بلا أعمدة ترتكز عليها ويتحسر الشاعر عن سوء أحوال الزمان وكيف انقلبت أمور المسلمين، يشرف ويعظم صاحب المال ويهمش الأصيل وينتشر الخداع، والتعامل يكون بالكذب والنفاق، ويغيب الحياء والوقار، ويشيع الظلم والنهب والغيبه، ويشبه الفتاة الشريفة بالشجرة بدون ثمار، لا يأبه بها أحد ولا يهتم بها أحد، وبذهاب القيم الفاضلة يحل محلها التفسخ الأخلاقي بريادة النساء المتبرجات اللائي لا هم لهن إلا التزين وتضييع المال في الفواحش واللغو.

وتنبأ بانتشار الحسد والبغض بين المسلمين والتعامل بالربا والخداع والظهور بغير الاعتقاد السليم في المساجد، كما يرتفع شأن الأميين ومتعاطي الخمور وتوكل لهم المناصب العليا في السلطة.

إن تنبؤات الشاعر تجاوزت زمنه إلى أزمان أخرى، ويبدو أنه اطلع على ذلك من أحاديث الرسول ﷺ والسيرة النبوية والتراث الديني، فوظفها في قالب شعري، وظلت هذه القصائد راسخة في الذواكر الشعبية ويحملها المخيال الشعري جيلا بعد جيل.

ومن بين الشعراء الذين تنبؤا باستقلال الجزائر الشاعر "عبد القادر المازوني"[11] في قصيدة "الفرانصيص"[12].منها قوله:

تتهنى العباد وتزول قاع أحزانها

ويزول ذا الظلم على المسلمين

يا خالق العباد نتوسل بطه

رب وجيب ليها سلطان حنين

في هذه القصيدة تصوير للجو الذي تزامن دخول الاستعمار الفرنسي مدينة الجزائر، والتدمير الذي لحقها في جميع هياكلها المادية والمعنوية، والخراب الذي آلت إليه من جراء أفعاله، ورغم تحسر الشاعر لهذه الحالة إلا أنه توسم استقلال الجزائر وتوسل بالله تعالى وبجاه الرسول ﷺ أن يقع ذلك.

فبعد قرن وثلث القرن استقلت الجزائر مدينة ووطنا. أما الشاعر "بن يوسف"(13) يستنجد بشيخه "عبد القادر الجيلالي" لينقذ الأزمان القادمة، لأن تنبؤاته تخبره بانتشار الفساد في قوله: (14)

يا راكب العجاله يا درى نرجاك اليوم واللا لا لا

سيـــــدي كلمنـــــــــي

يا مولى جيلاله يا قويدر فكاك الجاني

واذيـــــاب اتخنـــــــي

محتوم خبر الكاتب والحديث لميح رواه كم من طالب
ياتي زمان أعجايب والمومن محقور وذليل عقله سالب

بلغـــوه ادهنـــــــــي

والحق سافر غايب والباطل مرفوع على الكرسي ناصب

بوزيـــــرو هجنـــــــي

لاجات قوم أذنابو واللي كان الجار لخوه يفتح بابو

بـــالـــــك تنشـــــدنـــــي

صدور رجال الداله والمشعشع نجموا غاب حندس قاله

وأظلامـــــــت دونـــــي

الزور عاد مراقب واللي عجبه غاب الحق الحق دونه حاجز
والحق غاب سحابه والتايب ناداه ارواه سكر بابه
تبعوه ڤاع احبابه وڤعد غير البوم ينوح جات ذيابه
نرجاك ضرك تراقب خاب الدهر وعاد ساسه خارب
وسنين جات غرايب كقطاع الليل ظلامها متراكب

يوجه الشاعر ندائه إلى شيخه "عبد القادر الجيلالي" الذي يلقب "قويدر" الراكب على فرسه السريعه، مترددا في استفهامه وانشغاله بممدوحه، بأنه منقذه من جناياته وذنوبه في زمن انقلبت فيه القيم.

وبعد ذلك يتنبأ الشاعر بما يحدث في المستقبل من خلال قراءته لواقعه الذي سينعكس في المستقبل على اعتبار ما سيكون، حيث يذل المؤمن، ويغيب الحق ويظهر الباطل، وتنتشر الأثام وتعم الشرور، والجار لا يأتمن جاره، ولا يفكر المسلم إلا في نفسه، ثم يعرج إلى رجال التصوف والأولياء الذين أفِلَ نجمهم بعد ظهور المشعوذين والدجالين الناشرين للأباطيل والخرافات، والمساهمين في وصول الظالمين والفاسدين إلى السلطة وبقائهم فيها، ويشبه هذا الوضع بطائر البوم الذي يبقى ينوح في الليل بمعية الذئاب.

ثم يعاود الشاعر ندائه إلى شيخه "عبد القادر الجيلالي" بضرورة نشر بركته قبل خراب الزمان، فيشبه فساد الزمان وأهله بقطع الليل المظلم، الذي ينعدم فيه التميز والرؤية الصحيحة، هذا الزمان الذي يصوره الشاعر "الطاهر بن حواء"[15] بقوله[16]:

الزمان ايفنى عيّا اشحال من صول

كل يوم ايعرى هذا وذاك يكسيه

فالشاعر يشبه الزمان بالإنسان المتعب، فكل صولة يقوم بها إلا ويترك أحدا عاريا، وأحدًا كاسيا.

فهذا الإنسان غير عادل، وهذه الصفة تنبأ بها الشاعر لأن الناس اكثروا من الفساد والآثام كما قال الشاعر عدة التحلاييتي[17]:

جات أثقال أهل الولاع بالخريبه

سايبين المحسن فعلوا بغير موجب

بالخدع تتفاخر ما قاريه اعقوبه

ايتافقوا من يحضر وينكروا الغايب (18)

إن الشاعر تنبأ بالنماذج البشرية التي تسيطر في المستقبل وهي فئة الفاسدين، أصحاب المكائد لانهم يتفاخرون بالخدع والحيل، ولا يقيمون وزنا لأهل الخير من المحسنين، وينكرون أعمالهم الجليلة. ويعتمدون في حياتهم على المعاصي والشرور ومحاربة الخير وأهله.

والخلاصة أن أشعار الجفر قليلة جدًا في الشعر الملحون، وأن أكثرها موجود في التعبير الشعبي، على شكل أمثال وحكم ونصائح، وأحيانا تأتي في شكل ألغاز تتضمن تنبؤات في المستقبل، بعضها يأتي على ألسنة الأولياء والصالحين أو الدراويش أصحاب الأحوال الذين أصطفاهم الله ووهبهم بعض الأسرار من الغيب، تأتي عفوية على ألسنتهم، وتستقرأ أحداثا تقع مستقبلا.